آداب الحرب من منظور إسلامي

د. سليم بركات

أكاديمي وباحث وكاتب سوري

المقدمة:

الأدب لغة عند العرب مأخوذ من كلمة (مأدبة) وهذه الكلمة كانت تطلق في الجاهلية على الطعام الذي يدعون الناس إليه، لكن بعد بعثه الرسولﷺ تحول معنى الأدب إلى مكارم الأخلاق، يقول ﷺ: "أدبني ربي فأحسن تأديبي" والأدب اصطلاحاً هو تعبير المرء عن أفكاره، وما يدور داخل وجدانه ومشاعره أو وصفه لما يراه من أحداث، وتعبيره عنها بأسلوب راق ولغة رزينة ومحكمة والمقصود بالمصطلح عند فقهاء الإسلام هو بيان الوجه الأفضل في كل سلوك والحث عليه فللأكل آداب وللسفر آداب، وللصلاة والزكاة، والصيام آداب.

وللحرب آداب تتعلق بتصرفات المسلمين أثناء حروبهم مع أعدائهم مثل "من يقتل ومن لا يقتل، وما يجوز اتلافه، وما لا يجوز...

كل ذلك نظمته أحاديث صدرت عن النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، أحاديث بنى عليها الفقهاء وحكم الشرع فيها. وقصارى القول إن آداب الحرب في التصور الإسلامي ليست دار قتال دائم كما يتصور الخصوم، وإنما هي "دار الآخر الذي يقاتل المسلمين إما أن يقوم بينهم وبين المسلمين صلح أو أمان"(1). وهذا ما يعبر عنه اليوم بالعلاقات الدبلوماسية، فالمسلمون معهم في حالة سلم مؤقت أو دائم حسب الأحوال وما تقتضيه المصلحة. إما عبارة "ترهبون" المذكورة في الآية الكريمة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال 60 ـ 61] فمعناها التخويف ليس من أجل كسب الحرب وحسب، بل أيضاً من أجل الاستغناء عنها إذا أدى التخويف دوره. والمقصود من شرح مفهوم "دار الحرب" في الإسلام هو "لنزيل لبساً كرسه بعض المستشرقين بإقامتهم نوعاً من التطابق بين عبارة الإسلام في

الغرب التي نبتت في الفكر الأوروبي وتكرست فيه وبين عبارة "دار الإسلام ودار الحرب" التي هي إسلامية فقهية"(2).

فأين هذا مما تمارسه إسرائيل في فلسطين من حرب وهدم وتخريب وقتل ضد العرب الفلسطينيين وأين من ذلك أيضاً ما قامت به أمريكا في العراق عام 1990، وما قامت به أثناء غزوه في عام 2003 وما تقوم به في سورية وباقي دول المنطقة حيث تستخدم أدواتها التدميرية الجهنمية ضد العمران دون استثناء "إلى الجسور وقنوات مياه الشرب وشبكات الإنارة ودور المدنيين فضلاً عن إحراق الحرث والنسل وقد فعلت ذلك في مناطق متعددة في العالم وإن أقل ما يمكن قوله: "هو أن إسرائيل وأمريكا ومن لف لفهما يمارسون الحرب بدون أخلاق، وبدون آداب، حرب الجهالة الجهلاء، حرب الإرهاب بالمعنى المعاصر للكلمة".

كان النبي ﷺ مثلاً أعلى للإنسانية، وقد اجتمع فيه من محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ما لم يجتمع لغيره من البشر، قبل بعثته وبعدها، عرف في صباه وشبابه بالصدق والأمانة ومكارم الأخلاق، والتي هي الأساس في حفظ حقوق الآخرين، وسلامة المجتمع، وبما يضمن للآخرين التعايش بالصورة الإنسانية الصحيحة والمتكاملة.

المتتبع لأحكام الإسلام وسنة نبيه، ووصاياه ﷺ في الحروب يرى "أن الخلق العظيم يمثل جوهر رسالته. بعث ﷺ والمجتمع في الدرك الأسفل وسائر المعمورة أحوج ما تكون إلى هدية، فحول الهمجية إلى شجاعة، والطغيان إلى رحمة وعدل فتبدد الشر خيراً، وتبدل الظلام نوراً، وصار الولاء لله يسمو على جميع الروابط القبلية والأسرية والأحقاد فعاش الانضباط في مجتمع سمته العنف القبلي والثأر الدموي، وحلت الإنسانية محل الوحشية، والنظام محل الفوضى، والعدالة محل القوة"(3).

حياة الإنسان لدى النبي الكريم ﷺ مصونة من الترويع والضرب والسجن والجلد والمذلة والتشويه وعلى أساس احترام النفس الإنسانية كان ﷺ "يربي أصحابه، على الوفاء بالعهود والوعود ويشدد على نفسه إلى أقصى مدى حقناً للدماء"(4). وما أروع قوله ﷺ "يوم الحديبية والله لا تدعوني قريش إلى خطة توصل بها الأرحام وتعظم فيها الحرمات إلا أعطيتهم إياها [البخاري] كان ﷺ "يلوح باستعمال القوة من أجل ردع الأعداء حتى يعيدوا حساباتهم، ويسعى قدر الإمكان إلى تجنب الحروب وويلاتها، وكان مع الأسرى يتعهدهم بالرفق، رحمته أسبق من غضبه، وعفوه أسبق من انتقامه، كان ينهي عن إلحاق الأذى بهم ويحث على الرفق بهم"(5).

ويحث ﷺ "استوصوا بالأسارى خيراً" [الطبرى] وبالتالي أليست هذه الوصايا

للرسول العربي الكريم في آداب الحرب أسمى وأكمل وأبر وأرحم من كل ما يحتوي عليه تشريع بما في ذلك قواعد القانون الدولي، كيف لا وقد جاءت ممن هو "أكمل الناس خلقاً، وأزكاهم عملاً، وأطهرهم نفساً، وأعطرهم سيرة".

يكشف التراث الفقهي الإسلامي المعني بتنظيم النزاعات المسلحة الدولية وغير الدولية عن اتجاهين الأول أن القواعد بشأن استخدام القوة في نزاعات مسلحة غير دولية أشد صرامة وأكثر إنسانية من مثيلتها التي تحكم النزاعات المسلحة الدولية، والثاني أن الفقه الإسلامي التاريخي قد حدد أربعة أنواع من النزاعات المسلحة غير الدولية لكل منها قواعده المختلفة التي تحكم استخدام القوة وهي "حروب الردة، قتال البقاء، الحرابة، وقتال الخوارج"(6) ومن ثم طور الفقهاء المسلمون قواعد قانون الحرب في الإسلام وهي قواعد تضفي الصبغة الإنسانية على النزاع المسلح عن طريق حماية أرواح غير المقاتلين، واحترام كرامة مقاتلي العدو، وحظر إلحاق الضرر بممتلكاتهم إلا إذا فرضت الضرورة العسكرية ذلك، أو إذا حدث الاعتداء دون قصد بوصفه ضرراً جانبياً. قواعد تتضمن مبادئ "حماية المدنيين غير المقاتلين، يقول تعالى في كتابه الكريم ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ (البقرة 190) وهذه الآية الكريمة تشمل غير المقاتلين من النساء، والأطفال والمسنين والرهبان، والعسفاء (جمع عسيف وهم الأجراء ممن يقدمون خدمات ومهام معينة للعدو في ساحة المعركة، لكنهم لا يشاركون في العمليات القتالية الفعلية) ومن هؤلاء الذين يقومون على الاعتناء بالحيوانات والممتلكات الشخصية، وكذلك أفراد الطواقم الطبية، والعسكرية والمدنية، والمراسلون العسكريون وجميع الفئات الأخرى من الأفراد داخل جيش العدو ممن لا يشاركون في العمليات القتالية الفعلية(7).

وقس على ذلك استخدام الأسلحة العشوائية ذات القدرة على التدمير مثل المنجنيق آلة لقذف الحجارة الضخمة، والسهام المسمومة، والسهام النارية. جاء في القرآن الكريم ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ (المائدة 32) الأمر الذي يشير إلى الاهتمام بممتلكات العدو والرغبة في صونها، وعلى سبيل المثال لا الحصر نظر الفقهاء المسلمون فيما إذا كانت هذه الأسلحة تستخدم "ضد عدو يتماثل من وراء مواقع محصنة أو غير محصنة، وكل ذلك يخلق الأحكام المتعارضة، والتحديات الكبيرة للقوانين الإسلامية للحرب بوصفها مصدراً مرجعياً في النزاعات المسلحة المعاصرة، والتي يمكن أن تستغل استغلالاً انتقائياً

لتبرير الهجمات ضد المدنيين والأعيان المشمولة بالحماية" وانطلاقاً من الحرص على التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين فصل الفقهاء المسلمون أحكاماً تتعلق بمسألتين مرتبطين باستخدام أسلوبين من أساليب شن الحرب وهما "البيات، أي الإغارة على العدو ليلاً، والتترس أي استخدام دروع بشرية" وعلى الرغم من الاختلاف بين الفقهاء فقد تركوا الأمر في التطبيق إلى الضرورة العسكرية، لكن لم تختلف آراؤهم وهي "أنه ينبغي ألا يستهدف الأشخاص والأعيان المشمولين بالحماية عمداً".

بحسب الرؤيا الإسلامية كل شيء في هذا العالم ملك لله، والبشر بوصفهم خلفاء الله في أرضه يتحملون أمانة تقضي بحماية ما لله، والإسهام في نماء الحضارة الإنسانية ومن ثم وحتى في اثناء سير الأعمال القتالية ، فإن التدمير الطائش لممتلكات العدو محظور حظراً صارماً.

كيف لا وأول الخلفاء المسلمين أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخاطب قائد قواته قائلاً "لا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تهدموا بناء، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، ولا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوها"(8) كيف لا ومثل هذه الأعمال التدميرية تمثل جريمة الإرهاب في الشرعية الإسلامية لأنها تمثل فساداً في الأرض. زد على ذلك حرم التمثيل بالجثث تحريماً قاطعاً بحسب توجيهات النبي ﷺ "لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا"(9) زد على ذلك أيضاً معاملة أسرى الحرب معاملة إنسانية وحمايتهم من الحرارة والبرودة والمعاملة القاسية. هذا بالإضافة إلى الأمان وحماية الحقوق الخاصة لغير المسلمين ممن يعيشون لفترة مؤقتة أو يقومون بزيارة سريعة لبلد المسلمين بغرض التجارة أو التعليم أو السياحة أو أية أغراض سلمية أخرى.

إن الواقع الإسلامي اليوم واقع لا يحسد عليه "فالفتن متفشية، والدماء مسفوكة، والأعراض مهتوكة، والأموال مسلوبة، ونهيها لم يحدث في التاريخ على الصورة التي هو عليها اليوم"(10). كيف لا وثقافة الحرب بعيدة عن الاقتداء بأقوال النبي ﷺ التي جسدت حقيقة أخلاق الحرب في الإسلام، كيف لا وما تقوم به الجماعات الإسلاموية الإرهابية بعيد كل البعد عن تعاليم الإسلام الحقيقية السمحة، كيف لا والحروب في الإسلام حروب هادفة، وليست حروباً عبثية من أجل سفك الدماء والإخلال بأمن المسلمين، كيف لا والأهداف السامية للحروب، التي وقعت في زمان النبي ﷺ هي "الدعوة إلى الإسلام، ورفض الظلم، وبسط العدل، والعمل على نشر كلمة الله، التي اتسمت بالسماحة والرحمة ولم يكن أي من أهدافها السيطرة والهيمنة واتباع الرغبات المريضة" هذه الرغبات التي تنقلها وسائل الإعلام الرسمية والجماهيرية بما فيها من همجية تقشعر لها الأبدان، ونحن لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن ما يجري اليوم غير

أخلاقي وهو ليس سوى الحرب على الإسلام وعلى تعاليمه وقيمه السمحة الرحيمة، كما لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن من آداب الحروب عند المسلمين "أن تعرض أهداف الحرب على الخصم لتوسيع الخيارات المتاحة له والقبول بما يختار. وكذلك عدم البدء بالحرب قبل الوعظ والتذكير والنصيحة والإرشاد لإقامة الحجة والعمل على الحيلولة دون وقوع الحرب، زد على ذلك عدم جواز قتال المسلمين أو استباحة دمهم بأي مبرر، فكل من نطق بالشهادتين حقن دمه، وحفظ عرضه وماله، والاختلاف بالمذاهب لا يسوغ القتال. زد على ذلك أيضاً عدم قتل الآمنين والأبرياء العزل، ولا سيما الطاعنين في السن والنساء والأطفال على وجه الخصوص، هذا بالإضافة إلى عدم اتلاف ممتلكات الخصوم.

من أروع المبادئ الإسلامية في الحروب بعد النصر هو "التعامل مع الخصوم بالعفو والصفح وعدم التشفي فيهم أو الانتقام منهم"(11) هذه هي ثقافة الحروب في الإسلام التي جسدها رسولنا الكريم ﷺ وكل ما يخالف ذلك مما يجري فالإسلام بريء منه، لأنه جهل فاضح بأحكام الإسلام وليس أقل من رغبة في تشويه صورته الناصعة إما بقصد وتعمد وإما من دون قصد.

مراجع ومصادر:

1 ـ القرآن الكريم.

2ـ محمد عابد الجابري، آداب الحرب في الإسلام، ومعنى الإرهاب في القرآن.
www.aljagr/abea.net

3ـ ذاته

4ـ روم لاندو: الإسلام والعرب مصطفى السباعي ـ دروس وعبر.

5ـ محمود زناتي: كلية التربية جامعة عين شمس ـ القاهرة
https;//www.islamweb.net

6ـ محمد البشير الإبراهيمي: شرعة الحرب في الإسلام، الدرر الإسلامية
Atticle.https;//derrar.net

7 أحمد الداودي: حماية المدنيين في قلب قانون الحرب في الإسلام مجلة الإنسان
2018/6/12.
https;//glogicrc.org

8ـ محمد ديلالي أخلاقيات الحرب في الإسلام
https;//www.aludar.net

9ـ وصية الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه لجنود الإسلام قبل فتح بلاد الشام
https;//rrligraryumn.edu

10ـ ذاته أحمد حاتم: آداب الحروب في الإسلام
https;//www.nasrawy.com

11ـ محمد حسين الأنصاريان
https;//www.erran.ir